المـــــرأة بين الـديــــــانات الوضعية و الديانات المنزلـــــة.

أ\ بلحاج مليكة.

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان.

لا توجد حقيقة عامة و موحدة في المعرفة الإنسانية يبنى عليها خطاب، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمرأة. هذا الموضوع الذي ازداد الاهتمام به في العصر الحديث المتميز بانتشار الأفكار الديمقراطية والتيارات التحررية، فالمرأة الكائن الذي يشمل موضوع الحديث في مختلف المجالات التي تتأثر بشكل أو بآخر بعوامل ثقافية هي في حقيقتها ذات أبعاد مختلفة دينية، اجتماعية وحتى سياسية واقتصادية.
لقد خلد ومجد التاريخ المرأة عبر العصور، وذلك ما حملته من وزن في المجتمع حيث اعتبرت في بعض المجتمعات القديمة بأنها آلهة لأنها هي الإخصاب والولادة والوفرة والخير..الخ كما سميت عدة آلهات وأصنام بأسماء أنثى كالاة والعزة ومناة.. وغيرهم كما أنها اعتبرت موضع شرف لدى العرب القدامى وفخر لدرجة مناداة الابن باسم أمه، زيادة إلى الحرية التي كانت تتمتع بها آنذاك، وتجدر الإشارة إلى أن للنساء دور هام في التاريخ، فالتاريخ لم يسجل من دون أن يكون للنساء ضلع فيه، وكان ذلك من خلال العلاقات السياسية بين القبائل سواء في توثيق عرى السلام، أو في تغذية الحروب والغزوات كما تولت بعض النساء الرئاسة وشاركن في الأمور العسكرية وعملت في التحكيم بين المتخاصمين وفي إيجاد أحكام سلمية وجديدة للمجتمع. رغم هذا إلا أن المرأة عانت من بطش وسلطة المجتمعات القديمة بين تعذيب وسلب لحقوقها وتجاهل لشخصها و نفي لدورها. على ضوء هذا فأي الديانات كرمت المرأة و رفعت قيمتها و مكانتها و أعطتها حقوقها؟.

فهذا الموضوع حساس جدا لذا أريد التجرد من الذاتية لمعالجته بأكبر قدر ممكن من الموضوعية ولإعطائه صبغة علمية بحتة لعرض صورة ومكانة المرأة عبر التاريخ.

أولا- وضع المرأة في الديانات الوضعية:

1-المرأة في المجتمع الهندي و الديانة البودية:

كانت المرأة في المجتمع الهندي تعاني الامتهان و الاحتقار، فقد أنكر إنسانيتها و أعرض عن الاعتراف بقيمها الاجتماعية ، فدعاه ذلك إلى إنكار حقوقها وإثقال كاهلها بالكثير من الواجبات مثلما جاء في أساطير "هانو" و "مانو" فشريعة هذا الأخير تنص أن الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم زوجها كالإله فتخاطبه بيامولاي و أحيانا ياإلاهي وتمشي وراءه ولا تأكل معه بل ما تبقى منه، كما أنه يعتبر الوباء و الجحيم و السم والأفاعي والنار خير من المرأة، كما جاء هذا في حوار دار بين "بوذا" و تلميذه "أناند" الذي حذره من رؤيتهن أو التحدث إليهن. وهنا يظهر لنا جليا إقصاء المرأة الهندية من المجال الديني لأنها اعتبرت لعنة ووباء فتاك، فكانت تعامل كالعبد إما ملكا للأب أو تباع للزوج فإذا توفي تدفن أو تحرق مرغمة على ذلك أو تباع مع أمتعته. فمن خلال ما ذكر وما أجمعت عليه المراجع والمصادر نلاحظ الغياب الكلي للوظيفة الدينية للمرأة و السيطرة المطلقة للرجل.

1- **المرأة في المجتمع الفارسي و الديانة الزرداشية:**

عاشت المرأة في منزلة كبيرة من الانحطاط و المذلة و رؤية باحتقار و تشاؤم، كما اعتبرت سبب خطايا الرجال التي توجب العذاب و السخط عند الآلهة لذا اضطهدت النساء بشتى أساليب التعذيب و الوحشية، فقد أعطت التقاليد و الأعراف الفارسية القديمة للزوج حق قتل زوجته، كما كان عدد الزوجات لا يتحدد.

لكن هناك أمر ينبغي ذكره في الديانة الزرداشية من خلال كتابها "الشهنامة" للفردوسي عن مواقف المرأة الجريئة في افتكاك حقوقها كمبادرتها في إغواء و خطبة الرجال، فبعد أن كان حكماء الفرس يعتبرون خطف النساء قوة و اقتدار، أصبح الاهتمام بها و الدفاع عنها و حمايتها و تكريمها سلوكا و عملا طيبا من الرجل الفارسي بأمر من الديانة الزرداشية، لكن هذا لم يدم طويلا بعد انتهاء عهد "زاردشت" فعادت المرأة لما كانت عليه.

2- **المرأة في المجتمع الآشوري و البابلي:**

أما عند الآشوريين و البابليين (في العراق و بلاد الشام) فقد عاملو المرأة بنفس معاملة المجتمع الهندي لها من استرقاق و انكار لقيمتها و مكانتها، فكانت عند الشك في طهارتها ترمى في الماء لتغرق لكن يحق للأب أن يعرض بناته للدعارة طلبا للمال، و إذا غاب الرجل عن زوجته ولم يترك لها ماتعيش به انضمت لرجل آخر حتى يعود.

أما في شريعة "حمورابي" كانت المرأة تعتبر كالسائمة و ليس لها الأهلية للملكية ولا للتصرف، فإذا قتل أحدهم بنتا فيسلمه ابنته ليقتلها أو يأسرها حسب ما يريد، فهذا لايدل على شيء سوى استهتار الحضارة البابلية بمكانة المرأة التي نجدها تطاوع الرجل وترضخ لأوامره من قبول بالدعارة إلى تنقلها من رجل لآخر بكل رضا.

4-المرأة في الحضارة المصرية القديمة:

على خلاف الحضارات السابقة فقد خصت المرأة بمكانة مرموقة فقد ولتها الملك والحكم، كما نصبت لها تماثيل تعظيما لها و اعترافا بمقدرتها، كما تمتعت بالشخصية الأدبية فحصلت على حقوقها المادية كاملة. لكن هناك شذوذ مارسه الرجل عليها بزواجه من أخته ومضاجعته لقريباته قصد السيطرة على ثرواتهن و ممتلكاتهن ضف إلى ذلك الطبقية المطلقة و الفرعونية الصارمة. رغم هذا يؤكد المؤرخون أنه ليس ثمة شعب قديم أو حديث رفع من منزلة المرأة مثل المصريين حيث كانت تعمل في الحقول وتمارس التجارة، اختيار الزوج، تولي شؤون الأسرة، المساواة مع الرجل في الإرث... لكن يضل تاريخ مصر حافل بالأمهات اللاتي يقام أعيادهن كآلهة الحب و السرور و الجمال...

5-المرأة عند الصينيين القدامى:

في عهد كنفوشيوس شبهت المرأة بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة و المال، وللصيني الحق في بيع زوجته كجارية و إذا ترملت تورث لأهل الزوج، كما كان له الحق في دفن زوجته حية أو حرقها، وفي الأسر الفقيرة إذا ولدت بنات أكثر تركت في الحقول ليقتلها الصقيع أو تباع في الأسواق و ظل هذا حتى أواخر القرن 19م.

6- المرأة في المجتمع الياباني:

من صفات المرأة اليابانية الطاعة إلى يومنا هذا فقد اشتهرت بطاعتها لأبيها قبل الزواج وزوجها ثم إبنها الأكبر بعد ترملها شرط أن تظهر بمظاهر البؤس فتحلق رأسها و تلبس ملابس كثيرة، كما عانت بطش الرجل فكان من حقه بيعها في سوق النخاسة أو سوق الدعارة، ويطلقها إذا أسرفت في الحديث أو ارتفع صوتها لذا قيل أن اليابان جنة الرجال.

7- المرأة في الحضارة اليونانية:

اليونان مهد الحضارة ورقعة الإشعاع العقلي ومنبت رواد الفلاسفة ، فعلى الرغم مما بلغه الفكر اليوناني من ازدهار وتقدم إلا أن انزلاقه كان عظيما في مواقفه من المرأة، فلم يعترف التشريع الإغريقي بحقوقها بحيث تقل قيمتها الإنسانية عن الرجل كما عرف عن أفلاطون أرسطو و سقراط وغيرهم كثر، كما حكم عليها بالعزلة حيث قال بريكلس "ميزة المرأة عدم شهرتها بين الرجال خيرا أو شرا" و نتيجة ذلك كثرة البغايا و الأبناء غير الشرعيين، فالمرأة الإغريقية عديمة الأهلية حتى سميت "رجسا من عمل الشيطان".

8- المرأة في الحضارة الرومانية:

فثمة كانت حالة المرأة أكثر ذلة و انحطاط باعتبارها جهاز للإغواء ووسيلة للخداع تفسد قلوب الرجال يستعملها الشيطان لنشر الفساد حتى فرضت عليها عقوبات كحرمانها الأكل و الضحك و العبادات الدينية، خدمة الزوج، طاعة الأصنام، كما للزوج حق قتل زوجته تحت شعار "المرأة ليس لها روح"، كما يتم تعذيبها بسكب الزيت المغلّى على بدنها، أو ربطها بالأعمدة أو بذيول الخيول و يسرعون بها أقصى حد حتى الموت. لكن بعد اتساع رقعة الإمبراطورية و ثرائها الفاحش ، صارت المرأة تتمتع بكثير من الحقوق أدت إلى انتشار الفساد الأخلاقي و الطلاق نتيجة للكبت الأول و التحرر الفجائي السريع.

9- المرأة عند اللوبيين و الأفارقة:

في هذا المجتمع اعتبرت المرأة متاعا فعرضت للبيع في الأسواق، فاللوبيين اتسموا بغلظة الطبع و قساوتهم في معاملة المرأة مستعبدين لها، فأرهقوها بالواجبات في ظل حياة بدوية خشنة تحت سلطة الرجل حيث تقاسمت الوضع مع جارتها البربرية.

10- المرأة في المجتمع العربي الجاهلي:

من خلال المراجع و الدراسات التي تناولت الموضوع نجد رأيين متناقضين، فهناك من اعتبر أن المرأة في المجتمع الجاهلي قد اكتسبت وضع مرموق، و آخرون يؤكدون على أنها فقدت كل كرامتها و انسانيتها، لكن كلا الرأيين يتفقان حول أنه على الرغم من بعض الارتقاء في مكانتها إلا أنها ظلت دون الرجل في مختلف مجالات الحياة، حيث اعتبرت علامة للكره و التشاؤم. فالمجتمع الجاهلي الذي عرف بوأد البنات استعمل عدة طرق منها الردم في الحفر أو الرمي في البئر أو إلباسها الصوف وإرسالها للصحراء للرعي شاءت أم أبت فالبنت كانت عار . وقد شاع عنه التمزق الاجتماعي و فكرة قانون الغابة التي تفرض سلطة الأقوياء على الضعفاء. أما الجانب الآخر فقد كان لها شأن وكانت صاحبة أنفة و رأي

و حزم فنبغت غير واحدة منهن في السيادة و الشعر و التجارة والصناعة لكن اقتصر هذا على بعض الأوساط الاجتماعية فقط.

ثانيا- مكانة المرأة في الديانات السماوية:

1- المرأة في الديانة اليهودية:

تأثرت هذه المرحلة بالتقاليد السابقة لها، حيث أن التوراة تعتبر أن الزوجة من أملاك زوجها مقابل المال الذي قدمه إلى الأب متنازلة عن حقوقها، كما حذر التلمود منها واعتبرها خطرا وخطيئة منكرة نسبة لقول النبي داوود عليه السلام:"درت و قلبي لأعلم و أبحث و لأطلب حكمة و عقلا و لأعرف أن الشر جهالة و الحماقة جنون فوجد أمرّ من الموت -المرأة- التي هي شباك و قلبها شراك ويداها قيود الصالح قدام الله ينجو منها أما العاصي فيؤخذ بها"، لذا اعتبرت أصل الشرور و منبع الخطيئة و مصدر الآثام وهي نجسة خاصة أيام الحيض و من مسها يكون نجسا سبعة أيام لكن تبقى هذه الأراء مستخرجة من التوراة المحرفة على غرار الأصلية التي توصي الزوج بحسن المعاشرة كما لها بحق المطالبة بالطلاق.

2- المرأة في الديانة المسيحية:

أما عن وضع المرأة في الديانة المسيحية فقد ورد عنه الكثير وعلى العموم هناك تشابه بين الديانة اليهودية و المسيحية في اعتبارها المرأة منبع الخطيئة و الشرور ومصدر الآثام، وهي سبب خروج آدم من الجنة، فيقول رجال الكنيسة: "أنه أولى لهن أن يحجبن لأنهن خلقن نساء وعليهن أن يعشن في ندم جزاء ما جلبن على الأرض من لعنات". كما اعتبروا أجسام النساء من عمل الشيطان(القديس فينتور) نسبة لقولهم أن الشيطان مولع بالظهور في شكل أنثى(تصريح بولس)، حتى وصل بهم الأمر إلى دراستها إن كانت تعبد الله كالرجل، وهل تدخل الجنة، وهل هي إنسان لها روح بشري، لذا قرروا أن الزواج دنس يجب الابتعاد عنه و الأعزب أكرم إلى الله من المتزوج. استمرت هذه النظرة حتى نهاية القرون الوسطى.

3- المرأة في الديانة الإسلامية:

جاء الإسلام الذي خلصها من عذاب الوأد وقوله تعلى أكبر دليل على ذلك " وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ " وكذا قوله تعالى "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{58} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ59." وفي هذه الفترة لم يكن للمرأة حق لا في الميراث ولا الحياة، وكانت النساء تطلق وترد كما يشاء الرجل حتى نزلت الآية القرآنية "الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"ونظرا لسوء الأحوال المعيشية، الحاجة والفقر والتقاليد التي عاشتها المجتمعات في تلك الفترة كره الرجل المرأة حتى نزل قولة تعالى:"وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" وهكذا جعل الإسلام المرأة تبلغ مكانة عظمى في المساواة مع الرجل وحق الحياة والتحرر والعمل نسبة لقوله تعالى "منْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " وكذا قوله "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلا يظْلَمُونَ نَقِيرًا" والغريب في الأمر أن بعض الناس يقرون أن الإسلام لم يعط المرأة حقوقها كاملة، لكن هذا غير صحيح. فتاريخ العرب والمسلمين زاخر بالشخصيات النسائية الإسلامية المتألقة، إذ نجد في صدر الإسلام نساء شهيرات قمن بدور رائد في الحياة العامة، ويكفي أن نذكر السيدة خديجة وعائشة كرم الله وجهيهما، والخنساء وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة و رابعة العدوية، وسواهن كثيرات. لذا نقول أن

المرأة قد احتلت مكانة مرموقة ومحترمة لم تنلها أي امرأة في أي حضارة أو ديانة سابقة، فالقرآن الكريم حافل بالآيات التي تحث على إكرام المرأة و لتعظيم شأنها قد خص الله عز و جل سورة كاملة باسمها(سورة النساء) ، كما نجد في القرآن الكريم عديد من الآيات التي يخاطب فيها الإناث و الذكور معا مما يدل على المساواة بينهما و إعطائها حقوقها و يحافظ على مكانتها و يفسح الطريق أمامها لتلقي العلم النافع لها في دينها و دنياها... و قد أيد كل هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:" والله كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل".

الخـــــــــــاتمة:

من كل ما سبق نلاحظ أن المرأة احتلت دائما مكانة دونية ومنحطة و مهمشة وغير مدروسة في سائر المجتمعات على الرغم من دخول عوامل التطور الثقافي والتكنولوجي أو بعض من الديانات السماوية لكن المحرفة بطبيعة الحال، فالحمد لله الذي أنزل القرآن ليهدي به أمته جمعاء ولينصفها ويعطيها حق الحياة... لكانت المرأة اليوم تعيش حياة لا مثيل لها رغم ما قامت به عبر مختلف العصور التاريخية من أدوار مهمة ومهام بارزة في الحياة الاجتماعية وفي الدفاع عن الوطن والكفاح من أجل عزته وكرامته، بالإضافة إلى دورها الأساسي والمتمثل في كونها الخلية الأساسية لبناء الأسرة.

من خلال ما عرضناه و في النهاية يمكن الاعتراف، بأن ظروف النساء لم تتغير إلا بعد مجيء الإسلام الذي استطاع إماطة اللثام عن واقعها و معاناتها...

الهوامش:

1) عوفي مصطفى: "نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية. رؤية سيكولوجية" مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية. جامعة باتنة العدد 12 جوان 2005. ص45.
2) عصمت الدين كركر. المرأة من خلال الآيات القرآنية. الشركة التونسية للتوزيع. ديسمبر 1985.د\ط. ص 21.
3) أمل دو غرامه جي. مكانة المرأة في الإسلام. أشغال ملتقى، مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية. المطبعة العصرية. تونس 1986. ص141.
4) محمد علي البار. عمل المرأة في الميزان. الدار السعودية للنشر و التوزيع، ط1. 1981، ص 13.
5) عبد الباري محمد داود. فلسفة المرأة في الشريعة الإسلامية و العقائد الأخرى. مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية. الإسكندرية ط1. 2003، ص15
6) محمد عبد الباري داود. المرجع السابق . ص20.
7) المرجع نفسه. ص 21.
8) أمل دو غرامه جي . المرجع السابق . ص140.
9) المرجع نفسه. ص 140.
10) عصمت الدين كركر. المرجع السابق. ص26.
11) حسن عبد الحميد أحمد رشوان: "علم اجتماع المرأة" المكتب الجامعي الحديث.مصر.د/ط.1998.ص 23.11
12) عصمت الدين كركر. المرجع السابق. ص 30.
13) أمل دو غرامه جي . المرجع السابق . ص 142 .
14) من سورة التكوير الآية 8-9.
15) من سورة النحل الآية 58-59.
16) من سورة البقرة جزء من الآية 31.
17) من سورة الإسراء الآية 31.
18) من سورة النحل الآية 97 .
19) من سورة النساء الآية 124.
20) سامية محمد فهمي: المرأة في التنمية.دار المعرفة الجامعية. الأزاريطة. مصر.د\ط. 1999. ص 31.